عبد الله نديم

(١٢٦١ — ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ — ١٨٩٦ م)

إن كان يستحق الإعجابَ مَن نبغ — والظروف له مواتية — من أسرة عريقة فى المجد أو الغنى أو الجاه ونحو ذلك مما ييسِّر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقُّوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأَوْلَى بالإعجاب من ينبُغ والظروفُ له معاكسة ، لا حَسَبَ ولا نسب ، ولا غِنَى ولا جاه ؛ بل ولا القوت الضرورى الذى يمكّن الفتى من أن يجدَ له وقتَ فراغ يثقف فيه نفسه .

قد يدعو إلى شىء من الإعجاب منظرُ شجرة يانعة ضخمة مثمرة ، تعهَّدها بستانيُّها بكل ما يصلحها ، من وضع فى المكان المناسب ، والغذاء الكافى ، والرِّى المتوافر فى أوقاته ؛ ولكن أدعَى إلى الإعجاب بِذْرة طُرِحَت حيثما اتفق ، فمدَّت جذورها بنفسها تَجِدُّ فى حصولها على غذائها ؛ فقد تجده وقد لا تجده ؛ وتعاكسها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها ، ثم هى آخر الأمر تكون أَيْنَعَ ما كانت شجرة وأضخمها وأوفرها إثماراً . كذلك كان من النوع الثانى « عبد الله نديم » ، كل الدلائل تدل على أنه سيكون نجَّاراً أو خبَّازاً ، ولو تنبأ له متنبِّئ متفائل لقال إنه سيكون نجاراً ماهراً ناجحاً ؛ فأما أديب يملأ الدنيا ويقودُ الرأىَ العامَّ ويُحْسَبُ حسابه فى كل ما يخطّه قلمه أو تنطق به شفتاه ، فلا يدور بخَلَد أحد حتى فاتح الرمل والضارب بالحَصَى .

هذا أبوه أصله من الشرقية ورحل منها إلى الإسكندرية وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصناعة (الترسانة) ، ثم لم يعجبه هذا العمل ، فاتخذ مخبزاً صغيراً

عبد الله نديم

يصنع فيه الخبز و يبيعه ، و يحصل من ذلك على الكفاف[1] من العيش .

فما بالك بأسرة من هذا القبيل ، مسكن متواضع ، وخبز إن توافر فإدام[2] غير متوافر ، وملبس لا يراعى فيه إلا أن يستر الجسم ولا يلفت النظر ، وصحة تُرك البتّ فيها للقضاء والقدر .

ولكن « عم مصباح » والد عبد الله رجل جادّ فى عمله ، قَنُوع بكسبه ، مستقيم — بالضرورة — فى حياته ، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده . أرسل ابنه إلى الكتّاب على باب حارته كما يفعل الناس من مثل طبقته ، يرسلون أولادهم إلى الكتاب زمناً ما ، فإذا اشتد مَتْنُهم[3] وقوى جسمهم أخذوهم إلى دكاكينهم فى مثل صناعتهم التى تُتوارث كما يُتوارث المال .

ولكن عبد الله تفوّق فى الكتّاب ، وظهرت عليه ملامح الذكاء ، فأراد أن يستمر فى تعلمه ولم يمانعه أبوه . وكانت الطريقة المعبّدة[4] لذلك أن يرسل الوالد ابنه إلى الأزهر ، ولكن أين مال الأسرة الذى يحتمل ذلك ؟ !

على أنه فى الإسكندرية — قريباً من بيتهم — مسجد هو صورة مصغّرة من الأزهر ، يدرّس فيه المشايخ ما يدرس فى الأزهر وعلى نَمطِه ، وذلك هو مسجد الشيخ إبرهيم باشا .

فدرس فيه عبد الله نديم ما شاء الله أن يدرس ، ولكنه كان تلميذاً خائباً فى هذه الدراسة لا يصبر على جفافها ، ولا يقدر على حل ألغازها ، ولا يتحمل العناء فى تفهم كتب نحوها وفقهها ، فكان لا يواظب على درسه ولا يبدى به اهتماماً .

وحُبِّب إليه نوع من الدراسة غير منظم ، يوافق مزاجه ، و يناسب استعداده ،

---

(١) الكفاف : مقدار الحاجة .

(٢) الإدام : مايصبغ به الخبز من ضروب المآكل .

(٣) المتن : الظهر . (٤) المعبدة : الميسرة المذللة .

وهو أن يصاحب الناشئين فى الأدب ويَغْشَى مجالسهم ومجالس أساتذتهم . وما كان للأدب درس منظم ولا هو يُعَدّ علماً ولا فنًّا ، وإنما هو « هواية » كذى الصوت الجميل يَهْوَى الغناء ويقلد فيه من سبقه ، ولا درس ولا فن ؛ ومثل هذا يُنظر إليه من أهل العلم بالنحو والفقه نظرة استخفاف وازدراء ؛ وقد عهدنا هذا فى أيام دراستنا بالأزهر ، أيام كان الشيخ سيد المرصفى يُحَلّق حلقة لدراسة الأدب ، فكان هذا عَجَباً من العجب ، ينظر طلاب الفقه والنحو ومشايخهم إلى حلقته شَزْراً[1] .

كان عبد الله نديم يغشى هذه المجالس الأدبية التى ليس لها منهج ؛ فيسمع شعر الشاعرين وزجل الزجّالين ، ونوادر المتماجنين ، وقصائد الراوين ، فيصغى إلى كل ذلك فى فهم كأنه كله آذان ؛ ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه ، وأنه إنما خلق لذلك لا للنحو ولا للصرف . فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير فى هذا الطريق ؛ وقد مُنح حافظة لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكى بعد ما اختَزَن ، ويغنّى بعد ما سمع ، فطوراً يوفّق فيستدعى ذلك إعجاب أمثاله ، وطوراً يُخْذَل فيستخرج ضحكَ أقرانه ، ومن كل ذلك كان يتعلم .

وإلى جانب هذا تعلم درساً فى منتهى القيمة ، درساً تعلمه « حافظ » ولم يتعلمه « شوقى » ، وتعلمه « بيرم التونسى » ولم يتعلمه « توفيق الحكيم » ؛ درساً قلّ أن يفقهه الأدباء مع عظيم خطره وكبير أثره ، ذلك هو أن نشأته فى صميم الأحياء الشعبية مع رَهَافة حسه ، ويقظة نفسه ، وفقره وبؤسه ، علمته أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه ، من أمثال وحكايات ووجوه معاملات وصنوف تصرفات ، فرسم ذلك كله فى نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر فى حياته الأدبية المستقلة ؛ والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وهفهفة

(١) نظر إليه شزرا : أى بجانب عينه ، إعراضاً أو غضباً .

الأغصان ، وديبب النِّمال ، وحلاوة البسمات ، وأدق مجالى الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه .

ولكن : مَرْحَى [1] بذلك كله ، تَبّاً للحياة المادية . هل يكسب من ذلك « عبد الله نديم » قرشاً ، وهل يستطيع « عم مصباح » أن يحتمل هذا الهَذَرَ طويلا ؟ لقد احتمل الإنفاق عليه فى الكتّاب ، لأنه طفل والكتّاب خير من البيت واحتمله يدرس فى « جامع الشيخ » لأنه كان يرجو فى ابنه أن يكون شيخاً معمَّماً وعالماً مفخَّماً ، يُتقرَّب إلى الله بتقبيل يده والتمسُّح بثوبه . فأما هذا اللَّغْو الفارغ الذى يسمى شعراً ونثراً فهو عبادة الشيطان لا عبادة الله ، ولست أتقرب إلى الله بالإنفاق على عَبَدَة الشياطين .

لقد نفضَ أبوه يدَه منه ، فأخذ عبد الله نديم يبحث عن وجه للكسب ، فاتجه اتجاهاً غريباً ، هو أن يتعلم فن الإشارات التلغرافية ثم يتكسَّب منه ، وكذلك كان ، فتعلمه واستُخْدِم بمكتب التلغراف بِبِنْها .

ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو إسماعيل ، وقد كان قصراً من أفخم القصور ، يقع على النيل فيما يسمَّى الآن « جاردن سيتى » خَدَم وحَشَم وموسيقى وطرب ، وما شئت من ألوان النعيم والترف ؛ وقد تعلم منه عبدالله نديم كيف يعيش الأمراء والسادة ، كما تعلم فى بيته وحارته فى الإسكندرية كيف يعيش الفقراء والعبيد .

وعاد إليه فى القاهرة شوقُه إلى الأدب ومجالس الأدباء ، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى ؛ ففيها — مثلا — مجلس محمود سامى البارودى ، وكان مجلساً عامراً يُسْمَرُ فيه السمَر اللذيذ : فأدب قديم يُعرَض ، وأدب حديث يُنشد ، وعرض للمعنى الواحد صِيغَ صياغاتٍ مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذاك ، يتخلله نوادر فكهة ،

(١) مرحى : كلمة إعجاب بمن أصاب المرمى .

وأحاديث فى الأدب حلوة . اتصل عبد الله نديم بهذا المجلس وأمثاله ، وتوثقت الصلة بينه و بين كثير من أدباء مصر إذ ذاك ، وأخصهم سبعة ، أُولع بهم واستفاد من معارفهم وأدبهم : شاعر مصر محمود سامى البارودى ؛ وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى ؛ والسيد على أبو النصر البليغ الشهير ؛ ومحمود صفوت الساعاتى ، الواسع الاطلاع ، الكثير المحفوظ ، المتفنن فى الطرائف الأدبية ؛ والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ؛ ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر الناثر ؛ وعبد العزيز بك حافظ عاشق الأدب والأدباء الكريم الوفىّ .

وكان الذى أرشده إلى هؤلاء الأدباء وعرّفه بهم ، وأحكم الصلة بينه و بينهم ، الشيخَ أحمد وهبى أحدَ المُولَعين بالشعر ، الناظمين له ، والمحرر بالوقائع المصرية فى بعض أيامه .

فأتمّ على هؤلاء وأمثالهم دراسته ، وشرب من منهلهم ، وارتوى من ينابيعهم فهو فى النهار تلغرافىّ ، يتقبل الإشارات و يرسلها ، و بالليل أديب يتقبل نماذج الأدب و يحاكيها .

ولكن لم يمهله الحظ ، فقد غَلِط فى عمله فى القصر العالى غلطة سببت غضب خليل أغا عليه ؛ ومن خليل أغا ؟ هو كبير أغوات الوالدة (أم إسماعيل) ، وكان القصر مملوءاً بالأغوات ، يقومون بشؤون القصر ، و يستقبلون المدعوّات و يصحبونهن إلى باب الحريم ؛ ونال كبيرهم خليل أغا من النفوذ ما لم ينله ناظر النظار ولا الأمراء والوجهاء ، لِحُظْوَته عند الخديو إسماعيل ووالدته ، إشارته حُكم ، وطاعته غُنم ، يخضع له أكبر كبير ، و يسعى لخدمته أعظم عظيم ، رأيه نافذ فى الدواوين والمصالح ، يتحكم فى مصر والسودان ، و يأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان ، حاز الثروة الضخمةَ والجاهَ العريض ، كأنه كافور الإخشيدى فى أيامه ، حتى إنه لما عُقد عَقْد زواج الأنجال فى القصر العالى حضره النظار والعلماء

وكبار الأعيان ، فكان يرأس الجميع « خليل أغا » . كان من خصاله أنه يذبح ويسبِّح ، ويغصبُ ويبنى مدرسة .

فما عبد الله نديم إذا غضب عليه خليل أغا العظيم ؟! إذا غضب عليه غير خليل أغا فُصل من وظيفته ، ولكنه إذا غضب عليه خليل أغا ضُرب وطرد ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبت .

سُدَّت فى وجهه أبواب الرزق فى القاهرة كما سُدَّت فى الإسكندرية ، وانتهى به الأمر إلى أن ينزل على عمدة من عمد الدقهلية يقيم عنده ويعلِّم أولاده ؛ ثم ما لبث أن تخاصم مع العمدة . فأما العمدة فيرى أنه آكَلَه وأسكنه مقابلَ تعليم أولاده ، وأما عبد الله نديم فيرى أن هـذا حقُّ الضيف ويبقَى له أجرُ التعليم . واختلفت وجهة النظر ، وتشادَّا ثم تسابَّا ، وغَلَى مِرْجَل عبد الله نديم . فكان ذلك نعمةً على أدبِه إذ انفجرَ المِرْجَل ، وتدفّق عبد الله نديم يصُوغ فى هجاء العمدة أدباً لاذعاً ، تدفعه عاطفة حادّة ، فعرف نفسه أديباً ، وعرفه مَنْ حَوْلَه لَسِناً يملك ناصية القول .

واتصل أمره بعينٍ من أعيان المنصورة ذى مروءة ، فاستدعاه وأكرمه ، وفتح له دكّاناً يبيع فيه المناديل وما إليها ، فاتخذ دكانه مَتْجَراً للمناديل ومجمعاً للأدب ، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب ، ويتناشَدون الأشعار ، ويتبادلون النوادر ، وبين هذا وذاك تأتى شارية لمنديل ، أو شارٍ لعِصابة .

وكانت هذه العادةُ فاشيةً فى المدن ، فقد يكون التاجر ذا ثقافة فقهية أو أدبية فيتخذ أصحابه من دكانه مكاناً للبحث فى الفقه أو الحديث فى الأدب ، إذ لم تكن قد غزتنا المدنية الأوربية فعلَّمتنا التخصص ، وأن مكان التجارة للتجارة فقط ، وأما الحديثُ فى العلم والأدب فله مكان آخر . وقد أدركنا فى أول زماننا شيئاً من هذا ، فكانت بعضُ الدكاكين مدارس ، وخاصةً فى الأدب ، لأن الأدب لم

يكن يُدِرّ رزقاً ، وإنما هو فنٌ للمتعة . وكثير من أدباء عصر عبد الله نديم كان من هذا الطراز ، فحسن أفندى عبد الباسط — الأديب الشاعر الهجّاء — كان فى بعض أيامه يفتح دُكّان عِطارة فى الزقازيق ، ويجتمع به فى دكانه أدباء الزقازيق وظرفاؤها ؛ والشيخ أحمد وهبي الشاعر الأديب كان له دُكّان طرابيش بالغورية ، وكانت مجتمع الأدباء والشعراء . ولكن أكثر هؤلاء لم ينجَحوا فى تجارتهم ، فالأديب فنان ، والفنّان — فى الغالب — سَمْح يُقَدِّر الذوق الفنى أكثر مما يقدر الدرهم والدينار ، والتجارة تحتاج إلى الضبط والدقة ، والعناية بالإيراد والصرف ؛ والفنان — عادة — طليق لا تُطيق نفسه القيود والحدود . على كل حال وجد عبدالله نديم بعد برهةٍ دكانه وليس فيها مناديلُ ولا جوارب ، ولكن جماعةٌ يتناشدون الأشعار ، ويستهلكون ولا يُغلون ، فأغلق دكانه وطوّف بالبلاد ينزل ضيفاً على هُواة الأدب ؛ إلى أن نزل بطنطا ، وصادف مولدَ السيد ، فكانت له حادثة ظريفة لفتت إليه الأنظار وشَهَرَته بين الناس .

وكانت البيوت أعظم شأناً من الدكاكين فى أنها مجتمع الأصدقاء من ذوى العلم والفن ، يسمُرون فيها السمرَ اللذيذ ويتحدثون الحديثَ الظريف ؛ هذا بيتهُ مُنْتَدَى الأدباء ، وهذا بيتهُ مجمعُ الفقهاء ، وهكذا ، فيكاد كل رجل يعرف مكانه من هذه البيوت على حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك فى طبقة الأوساط والأغنياء من ذوى الميل العلمى والفنى ؛ وأدركتُ فى حارتنا المتواضعة ثلاثة بيوت من هذا القبيل ، كان صاحبُ أحدِها قاضياً شرعيًّا كبيراً ، فكان بيته منتدى الفقهاء والعلماء يتسامرون عنده فى الدين والفقه ؛ والثانى موظفاً ظريفاً يسمُر عنده أصحابه بالأخبار والفكاهات ، ليلةً يدعون قارئاً جميل الصوت ، وأحياناً فَكِهاً حسن الحديث ؛ والثالث دفّافاً يضرب على الدُّفّ فى الأفراح ، فكان عنده كثير من هواة الآلات الموسيقية ، يحيون عنده الليالى المِلاَح حتى الصباح . فما بالك

بالموسرين إذا شُغِفوا بأدب أو علم أو فن ، وكانوا كراما يفتحون بيوتهم للهُواة من أمثالهم ، يجدون فيها الطعام الشهىّ والفنّ الشهىّ ؟ !

كان بيت شاهين باشا كنج بطنطا — وهو مفتش الوجه البحرى إذ ذاك — من هذا القبيل ؛ كرم حاتمِىّ ، وذوق أدبِيّ ، وظَرف نُوَاسىّ ، فتعرف به عبد الله نديم ، فوجد فيه شاهين باشا قُبحَ منظر ، مع طلاقة لسان ، وخفة رُوح ، وسرعة بديهة ، فغطَّى ذلك على قبح منظره ، واتخذه له نديما .

— ٢ —

كان مرةً يجلس فى قهوة أيام المولد الأحمدى سنة ١٢٩٤ ﻫ ومعه طائفة من أصحابه ، منهم السيد على أبو النصر الشاعر ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى الأديب الماجن ، فطلع عليهم اثنان من « الأُدَباتية » .

والأدباتية طائفة من الشحاذين يستجْدُون بأدبهم العامىّ وطلاقة لسانهم فى الشعر ، وحضور بديهتهم ؛ عُرِفوا بالإلحاح فى الطلب ، فإذا رددتهم أىّ رد أخذوا كلمتك على البديهة ، وصاغُوا منها شعراً يدلُّ على استمرارهم فى طلبهم ، واستغواء ممدوحهم ؛ وقد جمَعوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظَرهم المضحك فى ملبسهم وحركاتهم ، فَزِرٌّ خارج العمامة ، وطَبْلَة تحت الإبط ، وحركاتٌ يدورُ معها زرّ العمامة كأنه نحلة ، وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قِرَدة ، وهكذا . وسُمُّوا « أدباتية » جَمْع « أدباتي » وهى لفظُ سُخرِيَةٍ لأديب . فمرّ هذان الرجلان من طائفة « الأدباتية » على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله نديم ، فقال أحدهما :

أنعم بقرشك يا جندى	والاّ اكسنا اتمالْ يا أفندى
أحْسن أنا وحياتك عندى	بقى لى شهرين طُولْ جَوْعانْ

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوسْ أنا مَدِّيشى وانتَ تقولْ لى ما مشيشى

يطلعْ علىّ اُحشيشى أقوم أمَاص لكْ لوْدان

فرد « الأدباتى » ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك نحو ساعة ، ثم غُلب « الأدباتي » فانصرف مهزوماً .

ونَقل السيد على أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج ، فاستطرفها جدًّا ، وخَطَرت له فكرة طريفة أيضاً ، أن يقيمَ حفلا عاما ، يدعو فيه كبار « الأدباتية » والزجالين ويدخلون فى مساجلة مع عبد الله نديم ، فيكون منظراً لطيفاً ، ومحفِلا ظريفاً . ففعل ونَصب سُرادِقاً أمام بيته ، وأحضر رؤساء هذا الفن ، وشرط عليهم أنهم إن غَلبوا كافأهم ، وإن غُلبوا ضَرَبَهم ، فَرَضُوا . واستمرت المساجلة نحو ثلاث ساعات ، غَلَب فيها النديم ، فكانت الحادثةُ سببَ شهرته بين الأدباء والظرفاء .

لقد أخذ بعضهم عليه — فيما بعد — هذا الحادثَ ، وعَيّروه به ، وقالوا إنه رضى أن يقف موقفاً يساجل فيه المستجْدِين ، وأن يكون « أدباتيًّا » مثلهم ، ينازلهم ويغالبهم على مَلأٍ(١) من الناس ، فَمَثَلُه مثل المصارعين أمام « الزّفّة » ، ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيعُ النفس ساقطُ الهمّة .

والحقّ أنّ وضعَ المسألة هذا الوضع فيه كثير من الترمُّت(٢) والتعنُّت ، كالذى نُعرِض على مسامعه الفُكاهة الُحلوة فينتقدُ فيها خطأً نحويًّا أو لفظاً لغويًّا ، وكمن ينتقد الشيخَ الوقور على ما كان منه أيام الصبا ، والغنىّ الواسع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء ؛ فالمسألة لم تَعْدُ أن تكون طُرفة لطيفة ، وفكاهة

---

(١) ملأ : جمع من الناس .

(٢) الترمت : التحرج والتوقر .

ظريفة ، وقوانين الظَّرف تبيح من البحبحة فى مجالسه مالا تبيحُه مجالس الجِدِّ والوقار .

أخيراً عاد إلى مَسْقِط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م فى نحو الخامسة والثلاثين ، وهو أكثر خِبرةً بالدنيا فيما لقى من عظماء ووجهاء وأدباء ، وفيما رأى وسمع وعمل فى القصر العالى أيام كان موظَّفاً فى تلغرافه ، وفى التجارة أيام تاجرَ وأفلَس ، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يعلِّم أولادَ أحدِ « عُمَدهم » ؛ ولكنه دخلها كما خرج منها صِفْرُ[1] اليدين .

عاد فرأى فى الإسكندرية منظَراً جديداً لم يكن أيامَ كان بها ، كانت المجالس الأدبية يومَ فارقَها تتحدث فى غَزَل أبى نُواس ، ووصف البُحْتُرِىّ ، وهجاء ابنِ الرُّومى ، ومديح الشعراء فى إسماعيل ، وفكاهات الشيخ على الليثى ؛ فإذا انتقلوا من ذلك فإلى من عارَضَ شعرَ هؤلاء من المُحْدَثين ، وما أنشأه الناشئون من سُمَّار المجلس فى مثل هذه الأغراض ؛ ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث فى حالة البلاد ووقوعها فى أَسْرِ الدَّين ، وفى الدول وتدخّلها ، ورأى جمعية سرية تسمَّى « مصرَ الفتاة » يجتمع أعضاؤها فينقدون هذا كلَّه فى صراحة وحماسة ؛ والأدب يتحوَّل فيأخذ شكلَ الكلام فى الأمة ومصالحها ، وآلامها وآمالها ، ويحتل ذلك مكان غَزَلِ أبى نُواس ، وشعر صَرِيع الغوانى ؛ والنفوس بفضل تعاليم « جمال الدين الأفغانى » وصحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذى كان ، وتجد غذاءها فى الصحف السياسية والمقالات النقدية ، فيشتغل فى الصحافة من هذا النوع « أديب إسحق » و « سليم نقّاش » فى جريدتيهما « مصر » و « التجارة » ، ويُمِدُّها جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم .

---

(١) الصفر : الخالى .

فأعد عبد الله نديم نفسَه للأدبِ الجديد والمطلبِ الجديد ، وانغمسَ فى هذا التيار ، وحوّل قلمه فى هذا الاتجاه ، يُمِدُّ هذه الصحف بمقالاته فى مثل هذه الموضوعات ، فلَقِيَ من النجاح ما لفت إليه الأنظار ، وكان له فضل كبير فى إدراك أن الكتابةَ فى الموضوعات السياسية إنما يناسبها أسلوب متدفّق سريع مرسَل لا يقيده السَّجْع إلا قليلا ، لينسجمَ وحركاتِ النفس المتحمسة الثائرة .

وفكّر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » أن يحوّلوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، تعمل جِهَاراً فى الأعمال المشروعة ؛ وجدّ هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية ، وسمّوها الجمعية الخيرية الإسلامية ، (وهى غيرُ الجمعية القائمةِ الآنَ بهذا الاسم) . وكان من أهم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نَمَطٍ غير النمط الجاف الذى تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك ، فيضيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بثّ روح الوطنية والشعور القوميّ فى الأمة ، وقد كان هذا غرضاً جديداً دعا إليه الشعور القومي الذى كان فى طور التّكوّن .

وتمّ ذلك كله ، وُجمِع المال ، وأنشئت المدرسة ، وجُعل عبد الله نديم مديرها ، وافتتحها بخطبة رَنّ صَدَاها فى الثغر ، وكان ذلك فى آخر أيام إسماعيل ، وأقبل عليها كثير من أبناء الفقراء والأيتام ، ووُضع لها بَرْنَامَج يحقق الغرض ، وتكفّل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرّن الطلبة على الخطابة والتمثيل ، وعلى الجملة نفخ فيها من روحه ، ولعلها أول جمعية مصرية إسلامية فى مصر أُسست لمثل هذا الغرض .

ثم وَثُق الصلة بين المدرسة والقصر ، وكان الخديو إسماعيل قد عُزِل وحَلّ محلّه الخديو توفيق ، فتقرب النديم إليه واستزاره المدرسةَ فزارها ، ورجاه أن تُنسبَ

الرياسة لولىّ عهده «عباس» . فقبل . وأغرم بتعليم التلاميذ الخطابة، فكان ينتهز كلّ فرصة لإقامة الحفلات يخطُب فيها ، ويحضّر الخطب لتلاميذه ليخطبوها ، ثم يُمرّنهم أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ، ويصلح خطأها ويرشدهم ، فأسس بذلك نُخْبَة يحسنون التحرير ، ويحسنون القول . ولم يكتف بذلك بل خرج بالمدرسة إلى ميدان الحياة العامة ، فكان يحضّر بعضَ الروايات التمثيلية فى نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه فى بعض الملاهى العامة ؛ من ذلك أنه أنشأ روايتين اسمهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » ومثّلهما فى « تياترو زيزينيا » ، حضرهما الخديو توفيق ، ونجح فيهما نجاحاً أعلى ذكرَه .

ولكن ظهر فساد فى الجمعيـــة نسبوه إليه ، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عند ذاك اتجه إلى إنشاء صحيفة ، وحبّب إليه ذلك سابقةُ اتصاله بصحيفتى أديب إسحق وسليم نقاش ، ومَرانَتُه على الكتابة فيهما ، وشعوره بأن الناس أعجبوا بما كتب ، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب الصحف مقالاته مادةً ومعنى ، فلا يؤجِرونه على ما كتب ، وكثيراً ما يَضَنُّون عليه حتى بذكر اسمه فى ذيل مقالاته ، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم .

فأخرج صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » ، وفى هـذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه ، فهو يرمى إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه ، فى أسلوب قد يكون لاذعاً وقد يكون مضحكا .

وظهر العدد الأول منها فى ٦ يونيه سنة ١٨٨١ ، ودعا فيه الكتّاب أن يُوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم على النهج الذى رسمه : « كونوا معى فى المشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على

نحوِ ما صرنا به مَثُلَةً [1] فى الوجود ، من ركوب مَتْن الغَوَاية ، واتباع الهوى ، اللذَيْن أضَلّانا سواء السبيل » .

وفى الحق إن هذه الصحيفة كانت عجَباً فى موضوعاتها وأسلوبها .

انظر العدد الأول ، تجد تنكيتاً وتبكيتاً لأكبر المصائب التى كان يحسها ذلك العصر : مقال عنوانه « مجلس طبى لمصاب بالأفرنجى » ، وهى قصة شاب صحيح البنية ، قوىّ الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، فى رقة ألفاظ وعذوبة كلام ، وفى عزة ومَنَعة لا يشاركهُ فيها مشارِك ، يلتفُّ حوله أهله يعزّزونه ويؤازرونه حتى لا تمتدَّ إليه يدُ عدوّ ، ولا حِيَل محتال . وبينا هو فى ذلك تسلل إليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويُضمر الخَتْلَ والغدر ، فأسلمه أهله إليه انخداعاً به . فعرضه هذا الماكر على الأسواق يُرِيه من الغوانى من تعارِضُ الشمس بحسنها ، وتكسِفُ البدرَ بنورها ، فمانعَ حيناً ، ولكنه رأى أهلَ بيته قد وقعوا فى مثل هذه الغَوَاية ، وانغمَسوا فى مثل هذه الضلالة ، فسار سَيْرَهم ، وترك النفَارَ والإباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيبَ بالداء الأفرنجى (الزُّهَرِىّ) فاصفرَّ وجهه ، وارتخَتْ أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوّه وجهه ، وتبدّلت محاسنه بقبائحَ تنفِر منها الطباعُ ، وتمكن الداء منه ، وسَرَى فى دمه وعروقه ، فصار يقلب أطرَافَه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه .

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ، ويشخّصون مرضه ، ويقفون على أصله ، ويركّبون الدواء ليقف سريان الداء ، وتعلق بهم أهل المريض يسألونهم الإسراع فى معالجته ، والاجتهاد فى دفع مصابه ، فطمأنهم الأطباء ونصحوا لهم بالهدوء والتحرّز ممن كانوا السبب فى الداء ، حتى لا يُفسِدوا العلاج ؛

(١) المثلة : ما حدث لقوم من عذاب يكونون به عبرة لمن بعدهم .

وابتدأوا يعملون بمَشُورة الأطباء ويبذلون الجهد فى معالجته .

وواضح أن هـذه قصة رمزية ، أراد أن يصوّر فيها شعورَ الناس فى هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف ، ووقوع مصر فى الديون الباهظة ، وتدخّل الدول الأجنبية ، من مراقبـة ثُنائية و إنشاء صندوق الدَّيْن ، وما إلى ذلك ، كما يصور بها ألم الناس من هـذا المرض الأفرنجى ، وأملهم فى النجاة منه بسعى عقلائهم ، وتفكير أولى الرأى فيهم — كل ذلك فى أسلوب رِوائيّ مفهوم .

قد كانت هذه المسألة هى صميم المسألة المصرية ، ومشكلتها الكبرى ، فبدأ بها على هـذا النحو ، وعالجها هذا العلاج ؛ وكان بارعاً فى التورية بكلمة « الداء الأفرنجى » .

ويلى ذلك مقال فى « عربي تفَرْنَج » يصف فيه شابّاً من صميم الفلاحين ، تعلم فى مصر ، ثم فى أوربة ، وعاد إلى بلاده يُسَفِّه أباه لمّا قابله على المحطة وقبّله ، كيف يقبّله ، و يطالبه أن يُسَلِّم عليه بيديه فقط ، و يكتفى بأن يقول له « بُن ارِّيفيه » وينسى لغته ، حتى اسم البصل ، فهو لا يعرف إلا أن اسمه « أونيون » — و يختم هذا بالمغزى من القصة ، وهو أن لا أملَ فى مثل هؤلاء إلا إذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم فى تقدم بلادهم .

ثم يقص قصـة موسرين اجتمعوا فى بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهمين[1] لا يتكلمون ولا يتحركون ، فظنهم يفكرون فى أمر خطير شَغَل أذهانهم ، وَعقَد لسانهم ، كتفكيرهم فى تقدم الصنائع فى أوربة ، وكيف يفعل ذلك فى مصر ، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم ، و يضمن التقـدم فى عملهم ؛ ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما اجتمعوا لتعاطى « الكيف »[2] ، وقالوا مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف والتلغرافات ، ونحن كلنا بحمد الله فى غنى عظيم ،

(١) ساهمين : عابسين .

(٢) « الكيف » : المخدر .

عندنا الخَدَم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلّف لنا آباؤنا من المال ما لا تُفْنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات .

ثم قصة ترمي إلى نقد ما كان يجرى بين العامة من اجتماعهم فى القهوة ، وسماعهم للقَصّاص (الشاعر) ، وانقسامهم إلى معسكرين : متعصب لعنترة ، ومتعصب لزُغْبة ، وما كان من أحدهم — وقد ختم القصّاص الليلة بوقوع عنترة أسيراً — إذ ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلِّص عنترة من الأسر ، وإلا مات كَمَداً ، فلما لم يطعه ابنه ، وأفهمه أن هذا تخريف فى تخريف ، نزل عليه بعصاه حتى أدْماه . والجنون فنون .

ويلى هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل ، والمرابي الماكر ، إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مِائة جنيه ، فأعطاه سبعين ، وكتب عليه « كمبيالة » بمائة وعشرين ، وحَسَبها كما يأتي : المائة فائدتها عشرون ، تخصم من المائة فيكون الباقى سبعين ، وتُضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون ؛ ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب . ثم يقدّم الفلاح للمرابى قطناً وقمحاً ثمنهما الحقيقى ١٢٥ جنيهاً ، يحسبهما المرابى بأربعين ، ويغالطه أغلاطاً مضاعَفة حتى يجعله مديناً بمائتى جنيه وعشرة ؛ كل ذلك والفلاح فى غفلة لا يدرى ما يُصنع به — فإذا عُوتِب المرابى على ذلك قال : ماذا أصنع ! إن الفلاح حمار ، وأنا أريد أن أكون غنيًّا كبيراً فى خمس سنين !

ثم قصة غنى كبير بنى بيتاً فخما ، وأثّثه أثاثاً بديعاً ، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة ، فلما أتم ذلك كله عرضه على الزائرين ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحوى ليعرف أىّ نوع من العلوم والفنون يهوَى ، فقال الغنىّ صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت فى مَضْيَفَة كل منهم خِزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها مِنْفَضَة من الريش ، والخادم كل يوم يَنْفُضُها

ويمسح الزجاج والخزانة ، فعلمت أن هذا طراز جديد فى بناء البيوت وتأثيثها ، فقلدتهم فى ذلك ، ولا علم لى بعلم أو فن . « وهكذا أصبح الكلّ نائماً فى غفلة التقليد » .

* * *

نعم ، هذا كله فى العدد الأول من صحيفة « التنكيت والتبكيت » ، نقد للسياسة العامة للبلد ، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة . كل ذلك فى أسلوب يسترعى الانتباه . فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية ، فقال فى فاتحتها : « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفةً بتورية واستخدام ، ولا مفتخرةً بفخامة لفظ و بلاغة عبارة ، ولا معربةً عن غزارة علم وتوقد ذكاء ؛ ولكن أحاديثُ تعودناها ، ولغةٌ ألفنا المسامرةَ بها ، لا تُلجىء إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تُلزم مراجعةَ التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تُضطَرُّ لِترجُمَانٍ يعبِّر عن موضوعها ، ولا شيخٍ يفسِّر معانيها ؛ وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوَى» .

ثم هو يدرك أن فى الناس خاصةً وعامة ، وكلٌّ يجبُ أن يُقْصَدَ إلى تغذيته بالأدب ، و إشعاره بوجوه النقد ؛ لذلك يختار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة الفصحى كموضوع « الداء الأفرنجى » ، فهو موضوع دقيق لا يقدره قدرَه إلاّ الخاصة ، أما الفلاح والمرابي وسمّاعو القصّاص فمكتوبة للعامة ، فيجب أن تكتب بلغتهم العامية . وهو فى اللغة العامية ماهر كل المهارة ، يعرف أمثالهَم وأنواع كلامهم ، و يضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغنى ، والماكر والمغفل ، ما يليق به ، فى دقة و إحكام وظَرف .

ثم هو قد فَطَنَ لشيء جليل القدر ، وهو أن التعليم والنقد من طريق القصص أجذب للنفس وأفعل فى النقد ، فأكثر منه بل كاد يلتزمه .

لذلك كله نجح فى صحيفته ، ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن لم يكن قارئاً سمع ففهم .

ولم يكتف بذلك ، بل نراه فى عدد تال يلتفت التفاتة لها خطرها فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعفَ الخطابة ، واقتصارَها — تقريباً — على خُطب المساجد ، وهى خُطب لا تَمَسُّ الحياة الواقعة بحال من الأحوال ، وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تحرّك قلباً ولا تضيء حياة .

فكتب مقالا قويًّا فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الإسلام ، ودعا إلى أن يحضِّر خطب المساجد أعرف الناس بشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تَشرح هذه الخطب الموقفَ الحاضر فى وضوح ، وتبيِّن الأخطار المحيطة بالأمة فى جلاء ، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصَّص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمحَ بإلقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد ، ليصل صداها إلى كل قرية و بلدة ؛ وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ؛ ووضَع خطبة نَمُوذَجية توضح غرضه ، تتضمن المحافظة على حقوق البلاد ، والنهى عن الظلم والبغى ، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، والاتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والالتفاف حول الخليفة والخديو ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرُّز من إتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحُسْنَى ، من حفظ حقوق تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم.

هذه هى المعانى التى رأى أن الحاجةَ ماسَّةٌ إليها فى ذلك الوقت (فى أول

حكم الخديو توفيق قبيل الثورة العرابية) ، صاغها صياغةً دينية تناسبُ صلاة الجمعة ، فبدأها بالحمد لله ، والثناء على رسوله ، وختمها بالحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضهُ بعضاً » . — وقد حقق « الأديو » أخيراً فكرة عبد الله نديم فى إذاعة الخطبة شكلا ، ولكن لما تتحقق فكرته موضوعاً .

وانتهت هذه الصحيفة على هذا الوضع .

— ٣ —

لم يكن فى مصر إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل رأى عام يشعرُ بظلم ، وإن شعر فلا ينطق ، لأن عُنف الاستبداد أزماناً طويلة أمات الشعور وأخرس الألسن ؛ حتى تدخلت الدول الأجنبية فى شؤون مصر المالية ، فبدأ الشعور يتنبَّه ، وغذَّاه الخديو إسماعيل نفسه وجرَّأه ، لإحساسه بثقل التدخل وخشيته من عاقبته ؛ فأول معارضة من مجلس شورى النواب للحكومة كانت بإيعازٍ منه ، ولولا ذلك لم يجرؤ ، ومظاهرة الضباط ومهاجمتهم لنظارة المالية لتأخير رواتبهم كانت بتدبيره ليتخلص من وزارة نوبار التى تُمالئ[1] الأجانب فى هذا التدخل ؛ واجتماع أعيان البلاد فى دار السيد البكرى ، ووضعهم اللائحة الوطنية — التى تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة وضمانها وعدم تدخل ممثليها فى شؤون البلاد — كانت فكرةً بثّها الخديو فى أذهانهم ؛ وكان هذا أول ما أشعر الناس بقوتهم وحاجة الحاكم إليهم ، ونبَّه الرأى العام إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم و يطالب بالحقوق ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ورفع صوته بنقدهم ؛ وهذا الشعور إذا وجد فى أمة كان لا بد له من قادة يشعرون شعور الناس ، ويصوغونه صياغة قوية يُلهبون بها شعور من شَعَر ، وينبهون بها من لم يشعر ، فكان ذلك فى السيد جمال الدين

(١) تمالىء : تناصر .

ومدرسته ، وجاء الخديو توفيق ونواةُ الرأى العامّ قد غُرِست ، وتتابع الأحداث الخطيرة يغذيها وينميها ، والنفوس مستبشرة بتوليته ، فقد كان سَمْحاً رحيما ؛ وكان قبل عزل إسماعيل يتصل بالسيد جمال الدين ويحبّذ آراءه فى الإصلاح ، فلما تولى قرّبه إليه وقال له : أنت موضع أملى فى مصر ، ودعا شريف باشا لتشكيل الوزارة ، « وصرح برغبته فى تحقيق آمال الأمة ، وإخراجها من الحالة السيئة التى هى فيها بالاقتصاد فى نفقات الحكومة ، والاستقامة فى الوظائف العامة وإصلاح القضاء والإدارة ، وتوسيع نظام شُورَى القوانين ، وإصلاح المحاكم والمجالس ، والسعى لتعميم التربية والتعليم ، وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين فى أعمالهم » .

ففرح الناس وتَهَلَّلُوا لهذه الوعود القيمة ، وتفتحت آمالهم ، ولكن الحكم الشُّورِىّ لم يُرْضِ طوائف كثيرة — لم يُرْضِ الحاشية ، وكان السيد جمال الدين أشار على الخديو توفيق بتغيير حاشية إسماعيل ، فأغضبهم عليه . قال الشيخ محمد عبده : « ووكيل دولة فرنسا أخذ يسعى فى إقامة الموانع دون إعطاء حق النظر فى تصحيح الميزانية ، وتقرير الأمور المالية ، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدته فى إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة » فتغيَّر رأى الخديو توفيق فى ذلك كله ، فاستقال شريف باشا ، ونُفى السيد جمال الدين ، وأخذت الأمور مجرى آخر كان سبباً من أسباب الثورة .

ثم جاءت وزارة رياض باشا بعد وزارة شريف . وفى تاريخ مصر الحديثة كان شريف باشا دائماً رمزَ الحكم الشورى ، ورياض باشا رمزَ الحكم الاستبدادى ، وكلاهما كان يلتفّ حوله كثير من الخاصة ؛ فحول شريف جماعة ترى أن الحكم الشورىّ هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى ، والأمل الوحيد فى وَقْفِ كل سلطة عندحدها،والباعث الوحيد للأمن والحرية فى نفوس

الأفراد ؛ وحول رياض جماعة ترى أن الحكم الشورى لا يصلح إلا إذا نضجت الأمة وعرفت شؤونها ومجارى السياسة حق معرفتها ، ورُزقت من الشجاعة فى القول والجد فى العمل قدراً صالحاً ، وإلا كان الحكم الشورىّ نقمة . والأمة لم تبلغ هذا الحدّ . وكان الجدال والنزاع يدور على الفكرتين فى الصحف والمجالس ، وعلى كل حال فقد كان هذا درساً لتنوير الرأى العام فى السياسة ، وتفتيح الأذهان للنظر فى المسائل العامة .

وكانت شخصية رياض شخصية معقّدة — ذكى ، خبير بالإدارة ، قوىّ العزيمة ، صَبُور على العمل ، معتدّ بنفسه ، لا يرى بجانب رأيه رأياً ، إذا وثق بشخص لم يسمع فيه قول قائل ، وإذا أساء الظن بإنسان فإلى النهاية ؛ نزيه ، يحب الخير لمصر ، ولكن حسبما يرى هو وبالطريقة التى يراها ، قليل الثقة بالمصريين ممتلئ عقيدة بأنهم مملوءون عيوباً ، كبير التعظيم للأجانب ، معتقد بقوتهم ، يرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم أو على أقوامهم ، لا يرى بأساً من إغضاب الخديو وإغضاب الأمة فى سبيل إرضائهم ، ومع ذلك يبذُل أقصى جهده فى أن ينال منهم أقصى ما يستطيع لخير أمته — شديد الحبّ للحكم لا يعتزله إلا مُكرَهاً . فكانت أخلاقه هذه من عوامل التمهيد للثورة العرابية .

ألغى السُّخْرَة العامة ، كإقامة الجسور على النيل ، وحفر الترع من غير أجر ، والسُّخْرَة الخاصة ، كعمل الفلاحين فى أرض سيدهم من غير مقابل ؛ ونفّذ ذلك فى غير هوادة ، فأغضب بذلك الأعيان ؛ وأعطى السلطة العامة للمديرين ، فأساءوا السِّيرة ، وضيّق على الصحف ، وعطّل بعضها ، فعمل أصحابها سرًّا بعد أن كانوا يعملون جهراً ، وسافر بعضهم إلى أوربة يصدر الجرائد فى الطعن عليه ؛ وعارض الخديو فى أن يمنح الرتب والنياشين لمن يراهم أهلا ، كما عارضه فى كثير من رغباته

فغضب الخديو عليه ، وعاقب « رياض » المديرَ الذى سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو . وتصرف ناظر الحربيـة فى وزارته تصرفات أغضبت رجال الجيش المصريين، فطلب عرابى وأصحابه تشكيل مجلس عسكرى لتحقيق الشكايات، فمال رياض إلى إجابة مطلبهم ، ولكن أشيع عنه أنه هو الذى يمانع فى ذلك ، فغضبوا عليه — كل ذلك وهو لا يريد أن يتخلى عن الحكم .

تبلبلت الأفكار واضطربت ، وكلها تتفق فى وجوب تغيير الحال ، وإن اختلفت أسباب غضب كل طائفة ، فالأعيان يحبّون رجوع سلطتهم فى تسخير الناس ، والضباط المصريون يريدون العدلَ بينهم وبين الشراكسة ؛ وبعض ذوى الرأى يرون أن هذا كله تأييد لوجهة نظرهم فى أنه لا يُصلح الأمور إلا نظام الشورى ؛ والخديو ناقم على رياض لخشونته ؛ وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض من ضبط الأمور المالية . كل هذا هيأ للثورة العرابية .

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط ، إلى تغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام شُورىّ ، إلى التهييج على الخديو توفيق ، إلى المناداة بعزله لالتجائه إلى الدول لحمايته ، إلى الدعوة للجهاد فى سبيل صَدّ المغيرين . واتسعت الحركة ، من حركة محصورة فى الجند والضباط ، إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم ؛ واندسّ وسط الحركة من يعمل لصالح أمير ليحل محل الخديو توفيق ، فجماعة تعمل لصالح الأمير حليم بن محمد على ، ومن هؤلاء صاحب جريدة « أبو نضارة » ، ومنهم من يعمل لحساب الخديو إسماعيل لإعادته ، ومن هؤلاء راتب باشا السردار ، وهكذا .

فى هذا الجوّ الذى صوّرناه صورةً صغيرة جدًّا عَمِل عبد الله نديم ، واحتضنه العرابيون ، فكان خطيب الثورة وكاتبها ومِشْعَلَها .

اتخذ جريدة « الطائف » بدل « التنكيت والتبكيت » ، ونَقَلَ مكانَهـا

من الإسكندرية إلى القاهرة ، و بدأها عنيفة قوية ؛ تنقد تصرفات الخديو إسماعيل فى جُرأة بالغة ، وتشرح بؤس الفلاحين فى السُّخرة والعـذاب المهين الذى يَلقونه من الرؤساء ، وما شاهده بنفسه من أحداث ، وكيف يَخِرّ الناس قتلى من الجوع والبؤس ، والإعياء والضرب ، وكل رئيس يريد أن ينال حُظْوَةَ مَنْ فوقَه بالمغالاة فى التعذيب .

وكان عبد الله نديم فى هـذه الصحيفة يعبر عن آراء النواب فى ضرورة الإصـلاح عن طريق الحكم النيـابى . وقد كتب سلطان باشا رئيس النواب إلى إدارة المطبوعات أن تعتبر جريدة « الطائف » لسان النواب المعبّر عن أفكارهم ، فاعترفت الإدارة بذلك ، ونشر هـذا رسميًا بأمر نظارة الداخلية ؛ ولـكن لما رأت إدارة المطبوعات عنفه وتهييجه عطّلته شهراً .

أصبح « الطائف » فى الثورة العرابية لسان الدعاية لهـا ، يذمّ من عاداها ، ويشجع من والاها ، ويلقب « عرابى » بحـامي حمى الديار المصرية ؛ ويتطور بتطورها فينقد الأوربيين وتصرفاتهم ؛ وينقد الخديو توفيق لارتمائه فى أحضانهم ، فى أسلوب لاذع وتهكم ساخر ، فإذا كانت الحرب نَقَلَ جريدةَ « الطائف » إلى المعسكر يحرّض الجنود على القتال ، ويحرض الشعب على تقديم المَؤُونة ، وينشر خبر التبرعات ، وكلما اشتد الأمر اشتد فى تهييجه . وقد قلّت صفحاتها لاشتداد الظروف : من أربع إلى اثنتين إلى واحدة ؛ وهو يهرِّج فى أخبار الحرب فيقلب أخبار هزيمة المصريين إلى أخبار انتصار ، وانتصار الإنجليز إلى أخبار هزيمـة ؛ وظل كذلك حتى تمت الهزيمة ، وتم التسليم .

هذا عملُه فى الصّحافة ، وإلى جانب ذلك كان عملُه فى الخَطابة .

فقـد طاف فى كل مجتمع يخطب ، وأُعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب ، فما هو إلا أن يحركَ لسانه حتى يتدفقَ وتنهال عليه المعـاني والألفاظ

انهيالا . وقد نَشر فى البلاد فن الخطابة ، وعلّم كثيراً من الناشـــئة أن يخطبوا فى المحافل ، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته ، وبدأ ذلك أيام كان يعلم الإنشاء والأدب فى مدرسة الجمعية الخيرية فى الإسكندرية . فلما أُعلن الدستور فى أول عهد توفيق (٧ فبراير ســـنة ١٨٨٢) ، سرت فى النفوس هِزّة فرح لا تقدر ؛ وأمّل الناس أن الحكم النيابي سيصلح كل مفاسد الماضى ، ويرسُم كل وسائل السعادة للحاضر والمستقبل — واشتاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير فى هذا الموضوع ؛ فكان عبد الله نديم وصحبُه وتلاميذُه الذين يُغنُّون للنـــاس بآمالهم ؛ فأقيمت الحفلة تِلْوَ الحفلة يُدعى إليها النديم وفرقته ليخطبوا ؛ والنديم هو قُطْب الرَّحَى : يخطب أولا ، وكلما خطب خطيب وتناول موضوعاً قام النديم بعده يعقّب عليه ، ويتخذ من كلامه موضوعاً يُطْنب فيـه ؛ وفى هذه الحفلات يحضُر النظار وكبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان ؛ فتطرَب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولى ومحمد عثمان .

هذه حفلة تقيمها جمعية المقاصد يفتتحها « النديم » بقصيدة ، ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور ، ويتلوه إبرهيم اللقانى فيبين الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى فيعقّبُه النديم يكمل موضوع الفروق بين العهدين ؛ ثم يقوم الشاب مصطفى ماهر — باشـا فيما بعد — فيتكلم فى الحثّ على الاجتهاد فى العلوم والفنون ، ويستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلىّ يحمى الأهالى من استغلال المرابين ، ويختم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد ، فيقوم بعده النديم يتكلم فى هذا الموضوع ؛ ثم يقوم الشـيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومة النيابية ؛ ويطالب بوجوب أن يكون النواب من المتعلمين ، ويحث على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسَنّ القوانين المبينـة لحقوق الأفراد وواجباتهم ؛ ويقوم « النديم » بعده معقّباً على قوله ؛ ثم يقوم أديب إسحق فيتكلم فى شعور النواب

وتضامنهم مع النظار فى كل ما يجلب الخير للبلاد ، ويتلوه النديم ؛ ثم يقوم فتح الله أفندى صبرى (فتحى باشا زغلول) فيخطب فى الحث على الاتحاد والثبات ، وينتهى هذا الاجتماع .

وتتكرر أمثال هذه الاجتماعات ، ويقال فيها مثل هذه الخطب ، ويقوم بالدعوة إليها كبراء البلد ؛ وكلها على غِرَارِ الحفلات السابقة ، عِمادها عبد الله نديم وإن اختلفت بعض الموضوعات ؛ كدعوة إبرهيم اللقانى إلى التمسك بأسباب القوة والاتحاد : والحث على مجانبة الخوف والجبن ، وخطبة فتحى زغلول فى الأخذ بالمبادئ التى تُمدِّن البلاد ، والدعوة إلى إنشاء جمعية تفتح مدارس ليلية يتعلم فيها من لم يَسمح له عمله بالتعلم .

ويُدعى عبد الله نديم إلى حفلة فى الإسكندرية على هذا الطراز . وكل هذه الحفلات تُوصف فى جريدة الوقائع المصرية ، ويُذكر فيها خلاصة ما دار فيها من خطب ، فتنتشر فى البلاد .

فلما عُطِّل الدستور ، وتطورت الأمور ، وكانت الثورة العرابية ، تحوَّلت خطبُ عبد الله نديم إلى موضوع الثورة ، وكان يخطب فى كل مجتمع : فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات « الأفراح » ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلعُ عليهم عبد الله نديم وجماعة من ناشئته يَعْتَلُونَ المكان العالى ويخطبون فى موضوعات الثورة ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان « المغنِّى » : أين تغنِّى الليلة ؟ يقول : «فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم» وهو فى هذا الموقف لا يتحَرَّج من التهريج ، فيقول مثلا فى بعض خطبه : إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغُ مرماها جزيرةَ قُبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنكليزية فهى تحت رحمة مدافعنا ؛ فيصفق الناس . ويخطب « فتحى زغلول »

فيقول النديم : ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميذ فى خُطَبه من العلم والبيان والتفنن فى المواضيع ، مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً ؟ ! ويخطب مصطفى ماهر فيقول النديم : « أشهدكم أيها الناس أن أمةً يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد فى أمرها » .

على كل حال كان عبد الله نديم لسان الأمة فى عهده بخطبه ، وقلَمها بصُحُفه ، ينتقل فى الأقاليم ولا يكِلّ ولا يمَلّ ، وينشر آراءه ومشاعره فى أكبر عدد ممكن من الأمة . وبذلك كله ساعد على نموّ رأى عامّ مصرىّ يؤمن بالحكم الشورىّ ، ويتطلع إلى الإصلاح فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فإن كان السيد جمال الدين رسولَ الخاصة فى هذه المعانى ، فعبد الله نديم كان رسولَ العامة ؛ قطّر المعانى التى يدعو إليها جمال الدين إلى الشعب ، وأوصلها إلى التاجر فى متجره ، والفلاح فى كوخه ، والتلميذ فى مدرسته . كان السيد جمال الدين بحكم أرستقراطيته فى نشأته وثقافته ، والبيئة التى تحيط به ، ولغته فى كلامه وكتابته ، معلم الخاصّة ؛ وكان عبد الله نديم بحكم ديمقراطيته فى النشأة والعلم والبيئة واللغة معلم العامة .

لسنا الآن بصدد الحكم على الثورة العرابية وما نفعت وما أضرت ، والمسئولين عنها ، والمآخذ عليها ، وإنما كل ما يعنينا الآن أن نقول : إنه إذا تبخرت أقواله التى دعت إليها فورة الثورة ، وتبخرت أنواع تهريجه وتهويشه ، بقى لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد الله نديم فى هذه الحركة ، وهو إيقاظُ الشعور فى الشعب بحقه فى الشكوى من الظلم ، والمطالبة بالعدل ، وإفهامه أن الحاكم يجب أن يكون مسئولا أمامه ، وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذى أَلِفَه : من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثّلا فى نوابها ، وأن مصر

للمصريين لا للدولة العلية ، ولا لأية دولة أجنبية . وهذه معانٍ قد كانت عند خاصة الخاصة ، فنشرتها الثورة وعبد الله نديم فى العامة .

ولئن أخفقت الثورة فيقظة الرأى العام — إلى حدّ ما — وشعوره بنفسه ، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخفق ، ويتجلى ذلك على الأخصّ إذا قورن بينه و بين حالته من قبل .

— ٤ —

انتهت الثورة العرابية بالفَشَل والهزيمة المنكرة ، وكانت الهزيمة الخُلقية أقسى من الهزيمة الحربية ؛ فقد ذلّ أكثر قواد الحركة ، وتنكّر لهم أكثر من كان يناصرهم ، و بدأت السِّعايات [1] تَدِبّ ، وكل من كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى فى الإيقاع بخصمه ، يتهمه بعمل من أعمال الثورة ، وامتلأت المجالس المشكّلة للنظر فى الدعاوى والتهم ؛ وأخذ كثير ممن اشتركوا فى الحركة يتبرءون مما قالوا وما فعلوا . و إن استطاع كثير منهم أو حاول تبرئة نفسه ، فعبد الله نديم ليس بمستطيع شيئاً من ذلك ، فخُطَبه لا ينساها أحد ، وأقواله مسجّلة عليه فى جريدة « الطائف » ، فلا بدّ إذا حوكم أن يُحكم عليه بأشد العقوبات ، وكان أغلبُ الظنّ أنها الإعدام .

لقد فكر عرابى هو ومن معه أن يطلبوا العفوَ من الخديو ، وكتبوا رسالة و بعثوها مع وفد إلى الإسكندرية لتقديمها إليه ، ثم بدا لهم أن يغيّروا بعض نصوصها ، فبعثوا بصيغة أخرى مع عبد الله نديم ؛ فلما وصل إلى كفر الدوّار علم أن الخديو رفض العريضة الأولى وأمر بالقبض على بعض رجالها ؛ فعاد «النديم» إلى القاهرة ، وأيقن بالهلاك ، فأعدّ العدّة للهرب والاستخفاء ؛ وإذا به « فَصّ

(١) : السعايات الوشايات .

ملح ذاب » ؛ تجدّ الحكومة وتضع له الأرصاد[1]، وتُوجّه كل قوة للبحث عنه ؛ ويبعث كلٌّ من سلطان باشا ورياض باشا منشوراً لرجال الإدارة بالجدّ والنشاط للقبض عليه ؛ وتعلَن مكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه ، والعقوبة القُصوى لمن يخفيه ، فيذهب كل ذلك سُدى ، مدى نحو عشرة أعوام ؛ وهو فى كل أموره يحتال حيلا أين منها حِيَلُ أبى زيد السَّرُوجىّ فى مقامات الحريرىّ ؟ ويمثِّل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة ؟ .

لقد أعيا الحكومةَ أمره ، فأصدرت عليه حكما غيابيًّا بالنفى المؤبَّد من القطر المصرىّ .

ها هو ذا أولَ مرة يذهب إلى « بولاق » ويستخفى عند صديق له وفىّ أياماً حتى يخفّ عنه الطلب ، فيخرج وقد لبس « زعبوطاً » أحمر ، واعتمّ بعمامة حمراء وربط عينيه بمنديل ، وأطال لحيته ، وأمسك عُكّازاً طويلا ، وتصنَّع أنه من مشايخ الطرق ، ونزل فى سفينة مع خادمه إلى بِنْها ، فلم يفطُن له أحد .

وجَزِعَ خادمه وكان أُمِّيًّا ، وأراد أن يرجع إلى أهله ، فأيقن « النديم » أنه إذا عاد انكشف أمره ، فأخذ يقرأ الجريدة يوماً ، ثم تصنَّع الفزع وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم » . فسأله الخادم عما أفزعه ، فقال « النديم » : إن الحكومة قد جعلت لمن يرشدُ عنى ألفَ جنيه ، ولمن يأتيها برأسك خمسةَ آلاف . فخاف الخادم ، وأخذ يبالغ فى التنكّر أكثرَ من سيده ، واستراح من هذا الباب ، وظل معه طول مدة الاستخفاء . وقال هو عن نفسه فى هذه الفترة : « خرجت من مصر مستخفياً فدُرت فى البلاد متنكّراً ؛ أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدّعيها ، من قولى إنى مغربىّ أو يمنىّ أو مدنىّ أو فيومىّ أو شرقاوىّ أو نجدىّ ؛ وأُصلح لحيتى إصلاحاً يوافق

(١) الأرصاد : أى الجواسيس .

الدعوى أيضاً ، فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ؛ وأقصّرها فى آخر عند دعوى السياحة — مثلا — وأبيّضها فى بلد ، وأحمّرها فى قرية ، وأسوّدها فى عزبة » . فأحياناً كان اسمه الشيخ يوسف المدنىّ ، وأحياناً الشيخ محمد الفيومىّ ، وأحياناً سى الحاج على المغربىّ ، وهكذا . وأحياناً كان يجتمع بمن يعرفهم فيثير عجبهم ، لأن المقدرة مقدرة « النديم » ، ولكن يختلف فى الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جَلَّ من لا شبيهَ له .

وساعد على نجاحه فى هذا الاستخفاء أمور ، منها : مهارته فى حِيَله ، وإتقانه لما يدّعى ؛ فإذا ادعى أنه مغربىّ تكلم بلسان مغربىّ محكم ، أو مدنىّ فكذلك . ادّعى مرة — وهو فى القرشية — أنه عالم يمنىّ ، وذاعت شهرته فى العلم والأدب حتى بلغت القاهرة ، فأرسل إليه رياضٌ باشا « سعدَ زغلول » ليسأله عن معنى مَثَل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهم معناه ، فقابله على أنه عالم يمنىّ وفسّره له[1] .

وكان من مهارته فى استخفائه أنه رأى جِدّ الحكومة فى طلبه ، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به ، فأشاع عنه أن النديم هرب إلى « ليفورنو » فى إيطاليا ، ونقلت هذا الخبرَ جريدةُ «الأهرام» ، وصدّق الناس ذلك ، وعنّفت الحكومة رجال الضبط على إهمالهم حتى تمكن من الخروج ، فخفّ عنه الطلب ، ولم يكن كل ذلك إلا خُدعة . وكتب صاحب جريدة «المحروسة» مرة بعد استخفائه بسنتين : إنه « قد تعددت الأقوال فى مَقَرّ عبد الله النديم ، فمن قائل إنه التجأ إلى البلاد الإيطالية ، ومن قائل إنه فرّ إلى طرابُلُسَ الغرب ، ومن زاعم أنه أتى

---

(١) هذا المثل هو « بعلّة الوَرَشان يأكل رُطَبَ المُشّان » والورشان : طائر يشبه الحمام ؛ والمشان : نوع من أجود التمر . وأصله أن جماعة عهدوا إلى خادم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله ، فقيل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئاً والمراد منه شىء آخر .

السودان واتصل بالمهدىّ وصار له نديما ، وقال قوم إنه سارع فى السفر إلى « سيلان » للاجتماع بعرابى ؛ والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ، ونشر فيها مقالة أتى فيهـا على ذكر الحرب العرابية ، ونَدّد بالمصريين ، ونسب إليهم الضعف والجبن » إلخ .

ومنها عطف بعض الناس عليه ، وإيمانهم بأن المروءة تقضى عليهم — وقد نزل بساحتهم — أن يُخفوا أمره إذا علموا ، وأن يساعدوه على الاستخفاء مهما أُغروا بالمال ، كالذى كان من عمدة « العَتَوَة » بمديرية الغربية ، وهو الشيخ محمد الهمشرى فقد نزل عنده وعرّفه بنفسه ، فأكرم مَثْواه ، وأقامه فى داره أكثر من ثلاث سنوات فى مكان منعزل له باب خاص ، وزوّجه ، وزوّج خادمه ، فلما تُوُفِّىَ دعت زوجتُه أكبر أولادها ، وقالت له : هل تطمع فى المكافأة أو تكون كأبيك شهماً تحفَظُ الجـارَ وتحمى اللاجىء ؟ فوعدها بأن يكون كأبيه فى حفظه ، ووفّى بذلك ، حتى أحسّ « النديم » بوشاية واش ، فخرج من عندهم حامداً مروءتهم.

وصادفه مرة مأمور مركزٍ شركسىٌّ ، والنديم فى تنقّله بين البلاد ، فعرفه ، فصرف جنده ثم اختلى به ، وقال : لا ضرورة لتنكّرك فقد عرفتك ، وأعطاه ما معه من نقود ، ورسم له خطة السير فى طريقه حتى لا يُضبط .

وكان فى أول أمره شديدَ الحنين لأبيه وأمه وأخيـه ، لا يعرف ما صاروا إليه ، شديد الشوق لمعرفة كتبه وتآليفه وأوراقه التى تركها فى بيته بالإسكندرية ، ثم وسّط الصديق الفرنسىّ أن يتعرفَ كل ذلك ويأتيَه بالأخبار . فعرف الفرنسىّ أن أسرته تَشَتَّتَتْ والناس تنكروا لهم ، والأرصادَ وضعت حولهم ، وأن أباه يقيم عند قريبة له فى الريف ، وأن كتبه وتآليفـه التى أنفق فيها تسعة عشر عاماً ، عندما ضربت الإسكندرية وهاجر منها أهلها وضعها أبوه فى ثلاثة صناديق كبار وشحنَ بها عربةً من عربات السكة الحديدية ، فلمـا وصلت إلى كفر الزيات ازدحم

على القطار المسافرون من المهاجرين ازدحاماً هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرموا جميع ما بالعربة فى النيل ، ومنها الصناديق الثلاثة وفيها كلُّ ثروته العقلية .

ثم لما هدأت الأحوال وخفّ عنه الطلب كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالا منظّماً.

وتأتى عليه أزمات ثم تنفرج ، فهذا عيد الأضحى وهو فى « برّية المندرة » يسكن وسط الحقول ، لا يُساكنه أحد إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضرورىّ ، ويأتيه خادمُه الذى يسكن بعيداً عنه يشكو له البؤس والفقر وعدم القوت فى يوم العيد ؛ فما هو إلا أن يبعث له رجل من أهل البر والمروءة بما يملأ بيته قمحاً وعسلا وسمناً وثياباً ، كما يبعث الأطلس والحرير للبس زوجته ، وشيئاً من ذلك للخادم وزوجته . وأُتيح له من الفراغ ما مكنه من إكمال نفسه بالدراسة والتأليف، فكان إذا اطمأنّ فى قرية قرأ ما تصل إليه يده من الكتب ؛ وكانت مكتبته فى هذه الأيام مكتبة خفيفة يسهُل حملها إذا دعا داعى الرحيل السريع : فكانت تفسير القرآن لأبى السعود ، وقاموس الفيروزابادى ، و « الوافى » فى المسألة الشرقية لأمين شميّل ، وجغرافية ملطبرون الذى ترجمه الشيخ رفاعة . وألّف فيما يعِنّ له فى الدين والتاريخ ، فكان هذا نعمةً عليه لم يستطعها فى أيامه الأولى . كتب لصديق له فى هذه الفترة يقول : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغَل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ؛ لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت جَفّت الأوحال ، وحسنت الحال ؛ فترانى فكرى كَليمى ، وقلمى نديمى — تارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ؛ وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها لله المنّة ؛ وحينا أشتغل بنظم فرائد ، فى صورة قصائد ؛ ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، فى فنون مختلفة ؛ وآونة أكتب فى التصوف والسلوك ، وسِيَر الأخبار والملوك ؛ وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق،

وجغرافية الآفاق؛ ومرة أطوف الأكوان، على سفينة تاريخ الزمان؛ ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع، فى مدح الشفيع ... وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير؛ فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير، كيف جعل أيام المحنة، وسيلة للمنحة والمنة. أترانى كنتُ أكتبُ هذه العلوم، فى ذلك الوقت المعلوم، وقد كنت أشغَلَ من مرضعة اثنين وفى حِجرها ثالث وعلى كتفها رابع، وأتعبَ من مربّى عشرة وليس له تابع؛ أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال، وأقضى ليلى فى دراسة الأحوال، مشتغلا بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية، وزيارة الإخوان، ومراقبة أبناء الزمان؛ وقد نَسِيت الأهل والعَيلة، وربما نَسيت الطعام يوماً وليلة؛ فكنت كآلة يحركها البخار، لا سكون لها ما دام الماء والنار؛ فمتى كنت أنظر للمخلَّفات، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى فى الغير أصلاه الزفير
لكنها فى ساحة من فوقها جوّ مطير
هو صدق إيمانى وصبرى للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى فى باب مولاى البصير

وكان فى رحلته برًّا بخادمه « حسين » الذى غير اسمه فسماه « صالحاً » ، وزوّجه، وعلمه القراءة، والكتابة، وحفّظه جملة سُوَر من القرآن، وعلمه مبادئ الفقه والتوحيد، واتخذه صاحباً .

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يَشِيب منها الوليد، تغضب عليه زوجته وتلطِمه على فمه، حتى تكاد تسقط ثناياه، وربما رأى — مع هذه الحال — أن إظهار نفسه للحكومة أهون عليه، ثم يترضاها ويصالحها؛ وأحياناً تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه وتشتد الشحناء، وتهدده كلتاهما بأن تفضح أمره، فيتدارك كل ذلك بحيله؛ وأحياناً يشعر بالخطر يهدده، فيشتد فى الحذر والاستخفاء، حتى لقد

استخفى مرة فى قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير يُضاء بالجاز فيملأ الحجرةَ دُخاناً ، ويستمرّ فيها نحو تسعة أشهر ؛ وأحياناً يبلغ به سوء الحال مع الرغبة الشديدة فى الكتابة أن يصنع الحبر من هَباب[1] الفُرن ، ويضيف إليه بعض قَرَظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحِجْناء[2] . وهو على كل ذلك صَبور ، يعزّيه أن يجد من أهل المروءة ما يخفّف كربه ، ويضمّد جُرحه ؛ « فمحمد معبد » الحلاق « بشباس الشهداء » يؤْويه فى بيته ، ويغمره بفضله ، وينفق عليه ما يحرم منه أسرته ؛ و « أحمد جوده » الفلاح يصاحبه فى انتقالاته فى الظلام الحالك ، ويعرّض نفسه من أجله المخاطر .

لشدّ ما أتعب نفسه فى استخفائه ، وأتعب الناس معه ، ولكن ما أكثر ما أمتعهم أيضاً بأحاديثه وفكاهاته ، ووعظه وسمره .

وأخيراً نزل « بالجيزة » فعرفه عمدتها وكتم أمره ، ولكن رجلا اسمه حسن الفرارجى — كان جنديّا ثم استُخدم جاسوساً — عرفه فكتب إلى السراى وإلى الداخلية ، فأمرت بالقبض عليه ، وذهب وكيل حكمدار الغربية ومعه قوة من الجند فالتفوا حول البلدة ؛ وأراد « النديم » الهرب بحيله القديمة فلم يستطع ، فاستسلم . وكان من حسن حظه أنهم لم ينتبهوا إلى أوراقه ، وكان فى بعضها هجاء شديد للخديو توفيق لو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته . وكان القبض عليه فى صفر سنة ١٣٠٩ هـ . واستخفاؤه فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ . وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين ، فأحسن معاملته ، وأمر بأن ينظف مكانه فى السجن ، ويضاء كما يريد ، وأن يمكن

---

(١) الهباب : التراب .

(٢) الحجناء : نبات معروف بمصر .

من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمده بالمال من عنده . وكان هم التحقيق متجهاً إلى معرفة من آواه ؛ وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ؟ ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكون أحد ممن آواه يعرف حقيقته . ثم صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر إلى أيّ جهة شاء . فاختار يافا ونزل بها ، فأكرمه أهلها ، واتخذ بها داراً جعلها منتدى للأدباء والعلماء ، وطوّف فى فِلَسْطِين يشاهد آثارها ، ويحجّ إلى مزاراتها ، ويجتلى حسن طبيعتها .

ثم مات توفيق وتولى عباس ، فعفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ فعاد وفكر طويلا فيما يفعل وأين يتجه ، وتردد بين مصر والإسكندرية ، وأخيراً عيّن اتجاهه ، وقرر أن ينشىء بالقاهرة مجلة « الأستاذ » ، فكان صفحة جديدة فى باب جهاده .

— ٥ —

كانت الظروف التى تولى فيها الخديو عباس ظروفاً دقيقة ، شاب ناشىء فى الثامنة عشرة من عمره ، دُعى من (ڤينا) حيث يتعلم ليتولى الحكم فى مصر ، ومصر قد انتهت ثورتها العرابية واطمأن الإنجليز إلى احتلالها ، ووضعوا أسس نظامها ، وتمكنوا من وضع أيديهم على كل شأن من شؤونها ؛ وعباس الشاب لُقّنَ آراء الاستقلال والشعور بالوطنية والعزم على العمل لتسترد مصر ما فقدت ؛ وهو يعيب على جَده إسماعيل إسرافه ، ويعيب على أبيه توفيق استسلامه ، وعلى رجال المعيّة ضعفهم ، وشباب الأمة يبلغه هذا الشعور فيجاوبه ، فيتوجه الخديو لصلاة الجمعة فى المسجد الحُسَيْنىّ فيقابله الشعب فى حماسة ، «ويتقدم الطلبة وغيرهم من المحتشدين بالسكة الجديدة — نحو العربة الخديوية ويُقصُون جيادها ويجرُّونها بأنفسهم» ، ويغيّر الخديو رجال المعيّة بغيرهم ممن هم أقرب إلى نفسه ومبادئه

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطئها فى سياستها الماضية التى آلت إلى ضعف نفوذها فى مصر ، فأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت، فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفافُ حول « عباس » .

وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف ، وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد إنجلترا بالجلاء عند صلاح الأمور .

والحكومة الإنجليزية تلوّح فى البرلمان الإنجليزى من طَرْفٍ خفىٍّ بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده فى مسالمة الإنجليز والتحالف معهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويوسّع نفوذه من طريق الرحلات فى المديريات ، ومقابلة الأعيان والعلماء ، وزيارة المعاهد والمدارس ؛ كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه بالاتصال بالمديرين ، وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن نظم التعليم والجيش ونحو ذلك ؛ فبدا شىء من الجفاء بينه و بين اللورد كرومر ، وتسرّب ذلك إلى الشعب .

عند ذلك بدأت تظهر فى البلد تيّارات مختلفة ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة ، و بدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف المختلفة .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية ، إما عن إخلاص ، و إما رغبة فى الكسب ، و إما خدمة للسياسة الفرنسية ؛ وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية ، إما رغبة فى الاستفادة ، و إما عن عقيدة أيضاً .

وظهر أثر ذلك فى الجدَل فى المجالس والمناظرة فى الصحف .

فى هذا الأفق المملوء بالسحب ، ظهر « عبد الله نديم » ثانية ، وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر ، فمكث قليلا يتعرف الأحوال ، ويدرُس ما فاته من شئون مصر مدة غيابه ، ثم صح عزمه على تحديد الغرض و إنشاء جريدة « الأستاذ » ، قال عنها : « إنها جريدة علمية تهذيبية فكاهية » ، تصدر يوم

الثلاثاء من كل أسبوع ، وظهر العدد الأول منها فى أول صفر سنة ١٣١٠ هـ — ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م ، يتولى هو تحريرها ، ويتولى أخوه إدارتها ؛ وقد كُتب فى أول عدد منهـا أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية . أما السياسة من حيث هى فنّ فإنها تدخل فى موضوعها العلمىّ .

كانت أول أمرها تُعَدُّ امتداداً لجريدته « التبكيت والتنكيت » من حيث موضوعُها وأسلوبها ، فهى تُعنَى أكثر ما تعنى بنقد العيوب الاجتماعية فى المجتمع المصرى ، وفيها مقال أو نحو ذلك فى شئون الإصـلاح السياسى من وجهة عامة ؛ ثم هى تُحرَّر باللغة العربية الفصحى فى المقـالات السياسية الإصلاحية ، وباللغة العامية فى الموضوعات الاجتماعية .

والمطلع على ما كتبه فى هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من مخبئه قد فوجىء بموجة من الانحلال الخلقىّ فى البـلاد : فإفراط لم يكن معهوداً من قبل فى شرب الخمور ، وعدم اكتراث الشاربين بنقد النـاقدين ، وانتشار للخمّارات فى المدن والبلاد والقرى ، وابتزاز الأروام للأموال عن طريقها — وشعور النساء بالحرية ، فهنّ يكثرن من الخروج فى الشوارع متبرجات بزينتهن ؛ ثم الحشيش والمعـاجين والإفراط فيهـا والاحتفاء بمجالسها ؛ ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك فى اللذات والشهوات ؛ وأعجب من ذلك السقوط فى تقليد المصرىّ للأوربىّ تقليداً أعمى فى لَىّ لسانه بالقول ، والتشدق باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه بالعربية ، ولُبْس الضيق المحبوك من الثيـاب الإفرنجية ؛ فنقد كل ذلك فى أسلوب قوىّ جرىء ، واتّهم الأوربيين بتشجيعهم هـذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل أخلاقه ؛ ونقد كذلك مناهج التعليم فى البلاد ، وخلوّها من بَثّ الروح القومية والعصبية المصرية ، وحثّ أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التى تَسُدُّ هذا النقص ، ونحو ذلك .

وعجب مما رأى من أن كثيراً من أولى الرأى فى الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال ، فانطوَوا على أنفسهم ، ولَزِموا دورهم ، فإن تكلموا فى الشؤون العامَّة فمن وراء حجاب ، وتركو الناس مبلبلةً أفكارهم ، مضطربةً نفوسهم ، لا يعرفون أين يتجهون ؛ فدعا إلى خروج ذوى الرأى من عزلتهم ، واختلاطهم بالرأى العام فى المجامع العامة ، يخطبون فيهم ، ويشرحون ما حدث وما يحدث ، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم .

فى كل ذلك كتب « عبد الله نديم » فى الأعداد الأولى من « الأستاذ » — ووجد النفوس مستعدة لهذه الدعوات كأنها حائرة تنتظر الدليل ، ضالّةً تلتمس الهادى ، فانتشر « الأستاذ » انتشاراً فاق ما كان يتوقع ، فقد كان يطبع منه حول ثلاثة آلاف ، كأكبر جريدة يومية إذ ذاك ، وأُعيد طبع الأعداد الأولى منه .

وقد حاول مرة أن يحرر الجريدة كلها باللغة العربية الفصحى ، فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة تذكر له خطأه ، لأن المرأة تسمع مقالاته فى بيتها ، والعاميّ يسمعها وهو فى مصنعه ومتجره ، والفلاح فى حقله ، وكلهم يستفيد من نقده ، وكثير يتعظ بنصحه ؛ فنزل عند رأيهم ، وأعادها كما كانت عربية فصيحة فى بعضها ، عاميّة فى بعضها .

ثم نرى نغمته تعلو شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسىّ ، ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديو عباس ، ومناهضة الاحتلال ، حتى بدا ذلك واضحاً فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ ، فيفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » ؛ وهى كلمة كانت تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين ؛ ويقع المقال فى ست وعشرين صفحةً من أقوى ما يكتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ، وما إلى ذلك ، ويندّد بالغربيين فى أساليبهم ، وبالشرقيين فى غفلتهم ، ويشرح ما تفعله الحكومات الغربية

لترقية شعوبها ، وما تنشره فى أمم الشرق لانحلالها ، وما يفعله المصريون فى تخاذُلهم وتواكُلِهم[١] ، ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية ؛ ويختم المقال بقوله : « وبالجملة فقد بلغ السيْلُ الزُّبَى[٢] — فإن رَفَوْنا هذا الخَرْق، وشددنا أُزْرَ بعضنا ، وجمعنا الكلمة الشرقية ، مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن ، وأنتم أنتم ؛ وإن بقينا على هذا التضادّ والتخاذل واللِّياذِ[٣] بالأجنبيّ فريقاً بعد فريق ، حَقّ لأوربا أن تطردنا من بلادنا ، وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعالنا » .

واستمر على هذه النغمة كذلك فى الأعداد التالية . والمطلع على الحوادث التى كانت تجرى فى تلك الأيام يرى أن علوّ هذه النغمة كان صدًى لما يحدُث من أزمات . ففى هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديو عباس واللورد كرومر ، ففى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى باشا فهمى منتهزاً فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخرى باشا فى تشكيل الوزارة ، فعارض اللورد كرومر فى أن تعين الوزارة من غير أخذ رأيه ؛ واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت إنجلترا الخديو إنذارا شديداً ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخرى وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر . وانتشر الخبر فى الشعب ، فأقبلت الوفود على الخديو فى ١٨ يناير تلقى الخطب فى تأييده فى موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحاً فى الجرائد التى تناصر الحركة الوطنية ؛ فكان هذا هو السبب فيما نرى من حرارة مقالات النديم فى تلك الأيام وما بعدها ، ومناصرته للخديو ، ومنازلته للجرائد المخالفة فى قوة ووضوح .

---

(١) تواكلهم : اتكال بعضهم على بعض .

(٢) الزبى : جمع زبية ، وهى المكان المرتفع من الأرض لا يعلوه ماء .

(٣) اللياذ : الالتجاء .

وهو — مع هذا — يتوسع فى اقتراحات الإصلاحات الاجتماعية : فينقد علماء الأزهر فى انزوائهم وعدم معرفتهم بالدنيا وما يجرى فيها ، ويضع برنامجاً واسعاً لإصلاح الأزهر ، كما ينقد الزراعة فى مصر وتأخرها ، ووجوب إصلاحها على أساس علمىّ صحيح ، وفوضى اللغة العربية ، ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيانها ويكمل نقصها ، والخرافات والأوهام ، والطرق الصوفية وما يجرى فيها من مخاز وعيوب . . . الخ .

ثم علت نغمته طبقة أخرى ، فأخذ ينقد الإنجليز صراحة فى سياستهم فى الهند ومصر ، ويسبّ من يلوذ بهم ، ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير ، ويقول : إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له فى مذهبه من إنجليزية وعربية وحذّرت منه ، وقالت إنه يعدّ البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيىء لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت لأولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه ، وإلا ساءت العاقبة . وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمس ، والديلى نيوز ، وقالت إنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوربيين ، وإنه ثورى مهيج ، وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن ، وبعض الجرائد الفرنسية ؛ ولم يأل هو جهداً فى منازلة خصومه والتشهير بهم ، وإعلان عدم المبالاة بما يجرى له ، فقد لاقى العذاب ألواناً فى أيام استخفائه ، فكل ما سيناله هيّن بالقياس إلى ما لقى ، وأعاد نشر قصيدة له فى ذلك كان قد أنشأها فى محبسه ، منها :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا ... فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جَلد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقينا

إذا ما المجد نادانا أجبنا ... فيُظهر حين ينظرنا حنينا

يغنينا فيلهينا التغني عن الباكى وينسينا الحزينا

واسنا الساخطين إذا رزئنا نعم يلقى القضا قلباً رزينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكنا نَهينا أن نَهينا

وأخيراً طلب اللورد كرومر من الخديو عباس نفيه فأطاع، ولم يستطع أن يحمى من كان يحميه ، وودع « الأستاذ » قراءه فى آخر عدد منه صدر فى ١٣ يونية سنة ١٨٩٣ . فكان عمره أقل من عام ، ولم يذكر فى وداعه السبب الحقيقىّ الذى من أجله أغلق « الأستاذ » ونفى صاحبه ، بل قال إن سبب ذلك المرض وحاجته إلى الاستشفاء ، وقال فى آخر وداعه : وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلال ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قِلىً كان الرحيل وإنما دواع تعدَّت فالسلام عليكم

وكان ينشر ملحقاً « للأستاذ » هو صفحات من كتاب ألفه وهو فى المخبأ اسمه « كان ويكون » جُمع فيما بعد ، ولم يتم نشره ؛ كان يريد من تدوينه عرض خلاصة أفكاره الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية ،ملتزماً فيه حرية الفكر ، وعدم التعصب لدين أو جنس ، ذاكراً فيه ما شاهده فى مصر من أحداث ، مبيناً ما وراءها من علل .

ووضعه على نمط قصصىّ ، إذ كان له صديق فرنسىّ أتى من باريس قبل الثورة العرابية ، وتعلم العربية والتركية ، وأقام فى مصر متتبعاً حوادثها ، وعرف عبدالله نديم فى الإسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية ، وتوثقت بينهما الصلة ، وكانت له ضيعة قريبة من البلدة التى اختبأ فيها « النديم » فاتصل به فى مخبئه ، وكان الفرنسىّ يزوره ويخدمه فى قضاء أغراضه ، وكثيراً ما يدور الحديث بينهما فى الدين والسياسة

فبنى كتابه « كان ويكون» على هذا ، ودوّن فيه ما كان يدور بينهما من حديث وجدل ؛ وأكثر ما نشر كان فى أصول الأديان ، وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام، يتخلل ذلك بعض أخبار عن أحواله فى مخبئه، و بعض نظرات سياسية . ومما يُؤسَف له أن إقفال جريدة « الأستاذ » حال بينه و بين نشر القسم السياسى والتاريخ المصرىّ من الكتاب ، ومانشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع وسماحة دينية لطيفة ، وعاطفة جياشة بحب الخير لمصر والشرقيين .

— ٦ —

خرج « النديم» إلى يافا ، حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شهريًّا يعيش بها ، على شرط ألا يكتب شيئاً فى الجرائد يتصل بسياسة مصر .

وما لبث أربعة أشهر فى يافا حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة الدولة العلية ، و يلمِزُ السلطان ؛ فصدر الأمر بإبعاده أيضاً .

فأخذ يَذْرَع الأرض لا يعرف أين يستقرّ، فلامصر تقبله ، ولا أى أرض من أراضى الدولة العثمانية تُحله ؛ ونزل الإسكندرية أياما حتى تُحَل مشكلته.

وقد كان كثير من أحرار العثمانيين إذ ذاك قد سافروا إلى أوربة ومصر ، وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور و بإصلاح الدولة، و ينقدون السلطان نقداً مرًّا. فكان من سياسة عبد الحميد فى بعض الأوقات أن يسترضىَ هؤلاء الناقمين ، ويحبّب إليهم الإقامة فى الآستانة تحت سمعه و بصره ، ويُجرى عليهم الرزق الواسع ، ويُسند إليهم بعض المناصب ، فيتّقى أذاهم ، و يستجلب رضاهم . فاحتشد فى الآستانة من أرباب القلم واللسان عدد كبير ، منهم السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم ؛ فكان أن الغازى مختار باشا أشار على الدولة العلية أن تعامل عبد الله نديم هذه المعاملة فقبلت . وسافر إلى الآستانة ، وصدرت

الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى بمرتب ٤٥ جنيهاً مجيديا ، مضافة إلى الخمسة والعشرين التى يتقاضاها من مصر — ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه ، ومن يَبَرّه من أهله وأقاربه ؛ ومن أيام المنصورة عُرف بأنه صَناع القلم واللسان ، أَخْرَقُ اليد[1] .

دخل الآستانة ، فدخل القفص الذى دخل فى مثله جمال الدين الأفغانى ، وغاية الأمر أن قفص جمال الدين ضَيّق من ذهب ، وقفص النديم واسع من حديد ، يختلفان بمقدار الخطر من كل منهما ومكانته وحسبه ونسبه ؛ فالسيد جمال الدين يخصَّص له بيت فخم ، ويُجعل تحت أمره عربة وخدم وحشم ، ويُجْرَى عليه ٧٥ ليرة فى الشهر ، وتُعرض عليه مشيخة الإسلام فيأبى ؛ وعبد الله نديم يعيّن مفتشاً للمطبوعات بخمسة وأربعين ليرة، ولا بيت ولا خدم — ولا غرو فالسيد جمال الدين سيِّد فى طبعه وحسبه ونسبه ، كان يَعُدُّ نفسه قَرِيناً للشاه والسلطان ، لا يقلّ عنهما إلا بما شاء القدر من تحليتهما بالملك وعَطَلِه منه ؛ وعبد الله نديم يرى أنه من الشعب وابن الشعب وخادمه ، لا يمتاز إلا بما منحه الله من ذكاء ولَسَن . إذا دعا السيد جمال الدين إلى الإصلاح شعر بأنه يخطُب الناس من أعلى مكان يشرف عليهم ، وهو غَضُوب وَقور ؛ وإذا دعا « النديم » شعر بأنه واقف فى وسطهم يضحك لهم ويضحك منهم ويصلحهم . ولهذا كان جمال الدين جليلا يُسمع لقوله فى رهبة وخشية ، وينصح الناس وكأنه يضربهم بالسياط ؛ وكان النديم محبوباً يقابَل بالابتسام ، ويُقبل قوله فى فرح ومرح ؛ ولذلك كان أسف الناس فى مصر على فراق النديم أكثر من أسفهم على فراق جمال الدين ، لأن سُؤْدُدَ[2] جمال الدين فى الخاصة وسُؤدد النديم فى العامة .

---

(١) أخرق : أحمق ، لا يحسن التصرف؛ وأخرق اليد كناية عن الإسراف .
(٢) السؤدد : السيادة وعلو المقام .

وعجيب أن يقبل « النديم » (وظيفة) مفتش للمطبوعات ، وهو الذى كان ينال الأذى دائما من إدارة المطبوعات ؛ وأن يرضى أن يتحكّم فى الصحف ، وهو الذى كان يأبَى أن يتحكم فيه أحد ؛ وأن يكون أداة لتقييد الحرية ، بعد أن كان داعيةً لتأييد الحرية ! ! ولكن يخفّف من هـذا أن « الوظيفة » كانت صورية مَحْضَة ، وكان الغرض منها أن يُمنح المكافأة فى مظهر غيرِ وضيع .

ها هو ذا فى الآستانة قد عطّلت كل مواهبـه ، فلا خطابة ولا كتابة ، ولا تهييج ولا تحميس ، وهو فى وسط يكاد يختنق منه ، لا يفرّج عنه إلا مجلس السيد جمال الدين ، يحادثه ويسامره ، وكلٌّ يشكو إلى صاحبه قفصَه .

ولكن أنَّى لصاحب هذا اللسان أن يهدأ ؟

لقد وقع فى الخصومة مع أبى الهدى الصيّادى ، كما وقع فيها معه السـيد جمال الدين ؛ ولكن السيد عفّ اللسان فى الخصومة الشخصية ، أما « النديم » فويل لمن عاداه .

كان أبو الهدى عَجَباً من العجب ، إذا أرّخت الدولة العثمانية فى عهد عبد الحميد احتل كثيراً من صفحات تاريخها ، وكان مستتراً وراء الصفحات الباقية ، يرنّ اسمه فى كل أنحاء المملكة من مصر وسورية والعراق وتونُس والجزائر ، ويتقرّب إليه الولاة فى حَلِّ كل عظيمة — أثبتَ به القدَر أنه على كل شىء قدير .

سورى من حلب ، فقير المال والحسب ، دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكيًّا وسيم المحيّا ، ماضى العزيمة ، قادراً على معرفة نفوس الناس ومن أين تُؤْتَى ، فتغلّب على عقل السلطان عبد الحميد بأحلامه وتفسيراته ، والطرق ومشيختها ، فربط نسبه بأعلى نسب ، فهو قرشىّ هاشمىّ علوىّ ، وهو فى الطريقـة رفاعىّ له الأتباع الكثيرون ؛ لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرته فينفقه ويستدين ، لأن عزّ الجاه والسلطة عنده أقوى من عزّ المال .

له أعين تأتى له بكل الأخبار ، فيستغلّها أمهر استغلال . لم يقف عند الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه إلى الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية . يحلُم فلا حدّ لحلمه ، ويبطِش فلا حد لبطشه . سُمِّىَ « مستشار الملك » و « حامى العثمانيين » و « سيد العرب » . استمال كثيراً من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء ، فكانوا عوناً له على كل ماأراد . يبطِش بهم حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرةَ العلم ، وينظم بهم القصائد حين يريد الأدب والشعر ؛ إلى كرم وسماحة وحسن حديث .

الدنيا كلها يجب أن تسخّر لشخصه ، وأن تخضع لأمره ، والحق ما أتى من طريقه ، والباطل ما أتى من طريق غيره — عدوّ كل إصلاح ، وخَصِيم كل حُرّ . كم له من ضحايا فى السجون ، وفى أعماق البحار ، وفى ذل الفقر ، وفى بؤس المنفى . تتملّقه الأمراء ، وتهابه العظماء .

وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلّل على عبد الحميد فاسترضاه ، وبالغ فى الطلب فأوفاه[1] ! !

هذا أبو الهدى الصيادى الذى لم يتحرّزْ عبد الله نديم أن يخاصمه وينازله ، ويطلق فيه لسانه ؛ ووضع فيه كتاباً سماه « المسامير » ، لم يُنشَر فى حياته ، وهو كتاب لا يشرّف الصيادى ولا عبد الله نديم ، لأنه استعمل فيه أسلوباً وضيعاً وهجاء فيه هجاء مُقذِعا .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضاً هجاء له . فبُحث عنه طويلا من غير جَدوى ، واستطاع « جورج كرتشى » الذى كان متصلا بالسيد جمال الدين و « النديم » أن يحتفظ به ويخفيه ويفرّ به إلى مصر ، ثم يطبعه .

---

(١) أوفاه : سمح له به كاملا .

لم تطل حياة « النديم » فى الآستانة طويلا ، فقد أصيب بالسُّلّ ، واشتدت عليه العلة ، فمات فى العاشر من أكتوبر سنه ١٨٩٦ ؛ واحتُفل بجنازته احتفالا كبيراً مشى فيه السيد جمال الدين — الذى لَحِقه إلى ربه بعد أشهر — ودفن فى مدفن يحيى أفندى فى « باشكطاش » .

وكانت أمه وأخوه قد عِلِما بشدة مرضه ، فسافرا إليه ، ولكن لم يدركاه إلا ميتاً ، ووجدا متاعه وأثاثه وكل شىء له قد نُهِب ؛ فعادا وليس فى يدهما إلا الحزن والأسى .

مات فى نحو الرابعة والخمسين من عمره ، فلم يكن بالعمر الطويل ، ولكنه عمر عريض ، فطالما غَذى الناس بقلمه ، وهيَّجهم بأفكاره ، وأضحكهم وأبكاهم ، وحيّر رجال الشرطة ، وأقلق بال رجال السياسة ، ونازل خصومه من رجال الصِّحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حلّ ، ولا على أىّ حال كان ؛ حتى هدّأه الموت الذى يهدِّىء كل ثائر .

مهما أُخذ عليه فقد كان عظيما !

فتح للناس فى جريدتيه « التبكيت والتنكيت » و « الأستاذ » أبواباً من الإصلاح الاجتماعى كانت مغلقة ، فى التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والأخلاق وما إلى ذلك ؛ فسار المصلحون على أثره .

وكانت الجرائد المشهورة فى عهده « المقطمَ » و « الأهرامَ » و « المؤيَّدَ » و « النيل » ؛ وكان لها ثلاثة اتجاهات : منها ما يسالم الاحتلال ويؤيده ، ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ؛ وكل منها يَعْرِض وجهة نظره فى شىء من الهدوء والرزانة والوقار . فلما طلع « الأستاذ » دعا إلى أن مصر للمصريين ، لا لتركيا ولا للأوربيين ، وناصر الحركة الوطنية

والالتفاف حول الخديو أمير البلاد ؛ ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكامنهم ، ويمسحوا الخوف عنهم ، ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ؛ ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكونَ لكل جريدة حزبها ، ولكل حزب برنامجه . ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه ، بل كان حادًا عنيفاً ، والحِدّة منه استتبعت الحِدّة من الجرائد الأخرى ، والغضب يبعث الغضب ، والصوت العالى يبعث فى الردّ عليه الصوت العالى ؛ فتميزت الجرائد بعضُها عن بعض فى وضوح وجلاء .

وكانت هذه الحِدّة وهذا الجدل المتتابع فى المسائل العامة أكبرَ موقظ للرأى العام النائم ، يفهمه موقفه وما يضره وما ينفعه ، وأى غاية يريد منه هؤلاء وهؤلاء ، ومواطن ضعفه ، وكيف السبيل إلى قوته ؛ وللنديم الفضل الكبير فى ذلك .

وكانت جريدة «الأستاذ» هى الأستاذ لمصطفى كامل ، تعلّم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف .

ثم كان فى « النديم » شىء من التهريج كالذى رأينا قبل . وكان من تهريجه أنه كان فى أول أمره يرتدى الثياب الإفرنجية ، فلما ظهر بعد الاستخفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بعمامة خضراء ، وادّعى أنه شريف إدريسى ينتسب إلى الحسن بن على ؛ وكثير من الواقفين على الحقيقة ينكر ذلك ؛ وربما دعاه إلى هذا شعوره بمركّب النقص ، من حيث نشأتُه الفقيرة المتواضعة ، وما مَرّن عليه من التصنع أيام الاستخفاء ، وحالة الوسط الذى عاش فيه من أنه لا يمجَّد إلا ذا الثراء أو ذا الحسب — ومع هذا فالعظيم يقدَّر بكله لا ببعضه .

كانت عظمته فى ذكائه وقوة لَسَنه . قال فيه المرحوم أحمد باشا تيمور : « كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدِّث أنه لم يوجز . لقيتُه مرةً فى آخر إقاماته بمصر فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سَحبان ،

وقبح الجاحظ . أما شعره فأقلّ من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

كان السيد جمال الدين يُعجَب بقوة حجة النديم فى المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته ، وشدة عارضَته [١] ، ووضوح دليله ، ووضعه الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب .

ثم هو شجاع لا يخاف ؛ يَلَذُّه مواجهة العظماء ومنازلة الكبراء فى غير خوف ولا وَجَل ، إلى تواضع مع العامة ومضاحكتهم ومؤانستهم وملاطفتهم ، لا يعبأ بالقوة ولا يخاف البطش ، فإذا نازل أحداً وسلّط عليه لسانه كانت الكارثة ؛ نازل الخديو توفيق والاحتلال ، وأبا الهدى الصيادى ، ولكلّ جاهُه وسلطانه الذى أذلّ أعناق الكثيرين ؛ كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه ، ما أتاه أتلفه ، وما وصل إلى يده بدّده ، معتمداً على ربه الذى يرزقه كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروحُ بِطَانا [٢] .

ضعيف الجسم ، كثير العلل ، وربما كان ذلك هو السبب فى موت أولاده جميعاً فى طفولتهم ، فقد رُزق قبل الاستخفاء بمحمد ، وعثمان ، و إلياس ، وفاطمة ، وعائشة ، وسُكَينة ، وخديجة . كما رُزق أيام الاستخفاء بحَفصة ، وريّا . وكلهم لم يعش طويلا . ومع هذا فهو — على مرضه — دائب العمل دائم الحركة ، لا يعتريه كَلل ولا ملل . يودُّ أن يخلد اسمه بالعمل ، بعد أن حُرِمَ تخليدَ اسمه بالولد .

أعدّ نفسه إعداداً عظيما بكثرة الخبرة وسعة التجربة . فكان كما حدّث عن نفسه : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن

---

(١) شدة العارضة : قوة البيان وسرعة البديهة .

(٢) خماص : ضامرة البطون لخلوها من الطعام . بطان : عظيمة البطون لامتلائها بالطعام .

الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يَرْجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين . وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم — عالية أو سافلة — فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ؛ واختلطت بأكابر التجار ، وسَبَرْت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة . وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً ودِيناً ؛ واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلّقتُ بمطالعة الجرائد مدةً ، واستُخْدِمْتُ فى الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفَلَحْت [1] حيناً ، وخدمتُ الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونةً — واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نُحولَ الشيخوخة فى زمن بَضَاضَة الصِّبا ، وتوّجنى بتاج الهَرَمِ الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء . فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

وربما كان أعظم شىء فيه ثباته على مبدئه . باع نفسه لأمته حسبما يعتقد الخير لها ، ولم يتحوّل عن ذلك على كثرة من تحوّل فى مثل مواقفه . هؤلاء زعماء الثورة العرابية حاولوا أول أمرهم أن يُنْكِروا ما فعلوا ، فلما لم ينفعهم إنكارهم وعوقبوا عادوا وخضعوا ، وعاشوا فى مسالمة ومهادنة . أما هو فلم ينكر ما قال . ولقى فى محبته الأهوال . وكان جديراً بمن لقى ذلك كله أن يهدأ ، وإذا هدأ فلا لومَ عليه . ولكنه ظل يجاهد ، ويُنفىَ فيجاهد ، ويُعفىَ عنه فيجاهد ، ويحذَّر فلا يحذر ؛ ويطمَّع فلا يطمع ، حتى لقى مولاه .

رحمه الله .

---

(١) فلح الأرض : شقها ، يعنى أنه اشتغل بالفلاحة .